دانيال شرايبر

وحيدا

دار نشر هانزر برلين

محتويات الكتاب

- العيش وحيدًا
- لطف الغرباء
- محادثات في الصداقة
- لم أشعر بالوحدة هكذا أبدًا
- خسائر غامضة
- أيام في فامارا
- العمل على الجسد
- ألوان الوداع
- شكر وتقدير
- ملاحظات
- مراجع

"في كل لحظة، هناك إلى جانب ما يُعد طبيعيًا... ثَمَّة ما يسكت عنه المجتمع، ويحكم على كل من يشعر به، لكنه لا يستطيع تسميته، بالوحدة والتعاسة. يومًا ما، ينكسر الصمت، فجأةً أو تدريجيًا، وتُعطَى المشاعر اسمًا أخيرًا، ويُعترف بها أخيرًا، بينما يبرز تحتها صمتٌ جديد. "

آني إرنو: *السنوات*

(من كتاب "سنوات" لآني إرنو. ترجمة: سونيا فينك. © دار نشر جاليمار، باريس، 2008. © الطبعة الألمانية: دار نشر زوركامب برلين 2017)

الحياة وحيدًا

كنا نجلس خلف المنزل على كراسي ضعيفة متأرجحة قابلة للطي، نشرب القهوة، نستمتع بآخر أشعة للشمس الدافئة في أواخر الصيف، وننظر إلى الأرض التي أصبحت قاحلة، بعد أن كانت في يوم من الأيام حديقة كبيرة. كانت سيلفيا وهايكو قد بنيا ذلك المنزل بالقرب من بحيرة ليبنيتس، في ضواحي برلين. استغرق الأمر عدة سنوات حتى اكتمل، لكنهما الآن قد انتقلا وابنتهما الصغيرة ليليت، وقد أداروا جميعًا ظهورهم لحياتهم في برلين بشكل نهائي. كنت أتابع الانتقال بمشاعر مختلطة. لم أكن متأكدًا مما سيعنيه البُعد المكاني الجديد بالنسبة لحياتي الاجتماعية، وبالأخص للصداقة التي كانت تربطني بسيلفيا منذ وقت طويل.

منذ سنوات لم يعتنِ أحد بتلك الحديقة. كان أمامنا هناك حقل قاحل من الأعشاب الجافة ونباتات السِّرْمَق ونباتات القُرّاص، محاط بأشجار الثوجا الكثيفة التي يبلغ ارتفاعها أمتارًا. في الوسط، كانت هناك ثلاث أشجار صنوبر كبيرة ترتفع إلى السماء، وبينها بضع شجيرات كرز بري ورودودندرون جافة، ذات أغصان ضخمة وأوراق قليلة. فقط بعض نباتات القرنفل الأرجواني المقاومة للجفاف بشكل مدهش، وبعض نباتات المنقار الوردي، ونباتات عين الشمس البرتقالية والصفراء الزاهية تمكنت من الصمود. قررت على الفور أن أسأل سيلفيا عما إذا كان بإمكاني المساعدة في إعادة تصميم الحديقة.

لا أستطيع أن أقول بالضبط لماذا شعرت أن هذا هو الصواب. كان ذلك مرتبطاً بأملي في أن يمنحني العمل في الطبيعة، والعمل مع

النباتات، نوعاً من التوازن. ربما كان جزء مني يشعر أن الحالة المزرية للحديقة تشبه حالة حياتي: مزرية على الرغم من كل لحظات الجمال. في الأشهر السابقة، ترسخ في داخلي شعور متزايد بأنني أخطأت في شيء ما، وأنني وقعت في شبابي في سوء فهم حالِم بشأن حياة الكبار الناضجين، وأن آثار سوء الفهم ذاك لم تظهر إلا الآن.

لم أتخذ أبدًا قرارًا واعيًا بالعيش وحدي، بل على العكس من ذلك، كنت أعتقد طوال الوقت أنني سأشارك حياتي مع شخص ما، وسنكبر معًا. في الواقع، كنت دائمًا في علاقات، قصيرة وطويلة، وأحيانًا طويلة جدًا، وغالبًا ما كانت تتداخل مع بعضها البعض. عشت مع اثنين من شركائي، وخططت مع أحدهما لمستقبل مشترك على مدى سنوات. كانت الأسابيع التي قضيتها وحيدًا في تلك المرحلة من حياتي تبدو في كثير من الأحيان وكأنها أبدية، أبدية ملأتها بالعلاقات الغرامية والعلاقات العابرة، وبالهواجس الرومانسية التي لا أزال حتى اليوم أكره التفكير فيها. لكن في مرحلة ما، انتهى كل ذلك. مرت أشهر، ثم سنوات، لم أكن فيها على علاقة مع أحد، وأصبحت العلاقات العابرة نادرة. بعد أن كنتُ لا أستطيع البقاء وحيدًا لفترة طويلة، بدأت الآن أبحث عن الوحدة.

عندما تحدثت مع أصدقائي عن هذا الأمر، أوضحت لهم أن السبب هو أنني كنت في الماضي أصغر سناً وأكثر انفتاحاً واستعدادًا للمخاطرة. أحياناً كنت أقول إن عالم الحب والرغبة الخاص بالمثليين يتسم بقدرٍ من القسوة تجعل المرء يختفي عن الأنظار عند بلوغه سن معينة. كنت أتساءل في سري ما إذا كنت أعاني من عبء نفسي ثقيل يمنعني من الدخول في علاقة جديدة، وما إذا كان هناك مكان في حياتي لذلك، في حياةٍ كنت أعمل فيها كثيرًا لأبقى على قيد الحياة، وأحتاج إلى الكثير من الوقت للكتابة، التي تُعد مشروعي الأساسي.

كل ذلك كان صحيحًا، لكنه لم يكن تفسيرًا كافيًا. ففي بعض الأيام، كنت أشعر أنني أعيش وحيدًا لأنني أفتقر إلى شيء مثل الثقة الأساسية. لم يكن لديّ انطباع أساسي بأن مستقبلاً جيدًا وواعدًا ينتظرني، مستقبل يستحق أن أشاركه مع أحد. ولم يقتصر هذا الشعور بالعجز على حياتي الخاصة فحسب، فبالنظر إلى النتائج المترتبة على التفاوت الاقتصادي العام الذي لا يمكن تجاوزه، والتأثير المتزايد للأنظمة الاستبدادية، والتغير المناخي الذي من المؤكد أنه لم يعد من الممكن إيقافه – بدت البشرية وكأنها قد فقدت الإرادة لمواجهة الكارثة التي تنتظرها. وبدلاً من ذلك، استسلمت لها بقدر غريب من الاستمتاع بالحتمية.

كل صيف جاف، كل إعصار استوائي دمر مناطق بأكملها ودول جزرية، كل توقعات عن المجاعات، وحركات الهجرة، وما يترتب على ذلك من انهيار الأنظمة السياسية، كل خبر عن تقاعس حكومات العالم جعلني أشعر بمزيد من اليأس. كلما قرأت عن النجاحات المفاجئة لحملات التضليل السياسي، عن التحذيرات من الإرهاب السيبراني والبيولوجي، وعن التحذيرات من الفيروسات الجديدة والأوبئة العالمية التي ستصيبنا دون أن نكون مستعدين لها، ازداد هذا الشعور باليأس.

ربما يمكن وصف ما شعرت به على أنه "ضرر معنوي"، أو كما يُسمونه "جُرح أخلاقي". هذا المصطلح مستمد من دراسات حول اضطرابات ما بعد الصدمة التي يعاني منها مراسلو الحرب، ويصف تضرر الفهم الداخلي للواقع، ينشأ عندما يضطر المرء إلى مشاهدة أحداث مروعة دون أن يتمكن من التدخل.[1] على الرغم من أن حياتنا لا يمكن مقارنتها بحياة أولئك الذين يغطون أخبار الحروب، إلا أنها تتميز بمعضلة مماثلة، فنحن نتابع الفظائع التي تحدث في العالم، وقد

أصابتنا إلى حد كبير لعنة العجز عن عمل أي شيء. لطالما بدا لي أنه من المستحيل ألا أعتبر ذلك هجومًا مؤلمًا على بوصلتي الأخلاقية، وعلى فهمي لنفسي وللعالم.

أنا أحب الحدائق. منذ بداية طفولتي، كنت أسأل أمي، التي كانت شغوفة بالبستنة، عن أسماء النباتات، وألعب بين أشجار الفاكهة الكبيرة ونباتات الهليون ذات الأوراق الرقيقة، دون أن أشعر بالوقت. منذ سنوات عديدة، أذهب بانتظام إلى بورنيم بالقرب من بوتسدام لأشاهد الحديقة الجميلة لمُربي النباتات المعمرة كارل فورستر. في فرساي، يمكنني أن أمشي لساعات طويلة في "حديقة الملك"، التي صممها جان بابتيست دي لا كوينتين؛ قلعة سيسينجهورست، مزرعة فيتا زاكفيل-ويست وحديقتها الواسعة المقسمة حسب ألوان الأزهار؛ كلها تسلبني أنفاسي مرارًا وتكرارًا.

في السنوات الماضية، أذهلتني بشكل خاص أعمال مصمم الحدائق الهولندي بيت أودولف. تتميز حدائقه بجمالها البري. فهي تشبه بحارًا إيقاعية من نباتات البراري والنباتات المعمرة المحلية والأعشاب، حيث يزهر فيها دائمًا شيء ما، وتبدو جذابة حتى في فصل الشتاء بسبب الأشكال المميزة لبعض النباتات. جذبتني حدائق أودولف بطريقة يصعب وصفها بالكلمات. فهي لم تلبِ حاجتي إلى الانعزال فحسب، بل أعطتني أيضًا الشعور بأنه يمكن مواجهة مصاعب حاضرنا بشيء ما. لقد أظهرت إمكانية جعل العالم أكثر جمالًا ولو على نطاق صغير، وأنه يمكن وضع الأسس لمستقبل أفضل حتى وإن كان على قطعة أرض صغيرة. إمكانية العيش مع العالم الذي نتشاجر معه وداخله.

مستوحيًا من أودولف وفلسفته في مجال الحدائق، اقترحت على سيلفيا وهايكو إعادة تصميم قطعة الأرض المحيطة بمنزلهما على نطاق أوسع. حصلت على كتبه ودرستها بشكل منهجي. كان الهدف هو إنشاء حديقة مستدامة بيئيًا، تتطلب جهدًا أقل عامًا بعد عام، لأن النباتات ستكون متناسقة جيدًا مع بعضها البعض ومع موقعها، بحيث تشكل نوعًا من النظام البيئي المصغر. حديقة لا تحتاج سوى القليل من الري حتى في الصيف الحار.

بدأنا العمل تدريجياً. كان لدي مفتاح للمنزل، وكلما دعت الحاجة، أو حتى عندما كنت أشعر بالتعب، كنت أركب القطار الإقليمي وأذهب إلى بحيرة ليبنيتس. عندما كنت هناك، كنت أحياناً أستيقظ في الصباح الباكر، وأعد لنفسي القهوة، وأخرج إلى الخارج. كان العمل اليدوي مصحوبًا بنوع من العمل الفكري، وترتيب الحديقة كان بمثابة توسيع لمساحتي الذهنية. أو على الأقل كان هذا هو شعوري.[2]

في ذلك الخريف، كنت أفكر كثيرًا في فرضية جان فرانسوا ليوتار الشهيرة حول "نهاية الروايات الكبرى". كان ليوتار قد طرح تلك الفرضية في نهاية السبعينيات في كتابه "المعرفة ما بعد الحداثة". ولم يكن يقصد بـ"نهاية الروايات الكبرى" أشكالًا أدبية من السرد، بل كان يصف فقدانًا أساسيًا للمصداقية تعاني منه مجتمعاتنا. وكان يقصد بـ"الروايات" السياسة والفلسفة. ففي رأيه، لم يعد بإمكان أي من هذين المجالين أن يدعي وجود "عقلانية" ملزمة.[3]

كان لدي انطباع بأننا لم ندرك إلا الآن ما يعنيه انتهاء تلك الروايات الكبرى في الحياة الواقعية، وأننا تمكنا من متابعة ذلك في الوقت

الحقيقي على مدى السنوات القليلة الماضية. وقد انعكس ذلك في تطورات، بعضها مرحب به وبعضها الآخر يمثل تهديدًا كبيرًا: نهاية البديهية الأبوية والمفاهيم الجامدة عن الجنس، على سبيل المثال. ولكن أيضًا نهاية المسؤولية الجماعية، والعمل الاجتماعي المدرب على المعايير العلمية، وفقدان الإيمان الجماعي بالديمقراطية.

بالنسبة لليوتارد، فإن نهاية الروايات الكبرى تضع تلك "الذات المستقلة"، التي يمكنها الاعتماد على يقينيات بديهية، والتي تستطيع، بالرجوع إلى حقائق مشتركة بين الجميع، أن تحدد ما هو صواب وما هو خطأ، موضع التساؤل. وبدلاً من ذلك، رأى ظهور أفراد متروكون وحدهم، وعليهم أن يجدوا طريقهم الخاص بين عديد من "الروايات الصغيرة". "أنا" باحثة تواجه التغيير الجذري في الزمن من خلال عيش حياة تفتقد إلى اليقين، وترغب في الحصول على أوجه أمان جديدة. تمكنتُ من التماهي تمامًا مع فكرة تلك "الأنا" الباحثة.

ربما تكون رواية الحب الرومانسي هي آخر رواية كبيرة نجت من ذلك التحوّل الزمني. على الأقل في بداياتها. بالطبع، نحن نتخلى أكثر فأكثر عن ذلك النظام "الإلهي" أو "الطبيعي" للجنسين، الذي كانت تلك الرواية الكبيرة جزءًا منه لفترة طويلة. وبالطبع، فقد تغير بشكل جذري فهمنا للحب. عالِمات الاجتماع، مثل إيفا إيلوز، وصفنَ بشكل مقنع التأثيرات التي يتركها التحول التجاري لمشاعرنا، ورسمَلَة أجسادنا، وكل اقتصاد الانتباه العاطفي الذي يسعى دائمًا وراء المزيد والأفضل.[4]

ومع ذلك، لم تفقد فكرة الحب سوى القليل من جاذبيتها. فهي لا تزال محور خيالنا الجماعي، كما أنها تحتل مكانة راسخة في توقعاتنا

الشخصية. كما أنها لا تزال هي ما يرغب فيه معظم الناس، وما يأملون فيه، وربما تكون المكوّن الأساسي لما يفهمونه تحت كلمة "السعادة". بالنسبة لمعظمنا، لا تبدو الحياة دون حميمية الحب كاملةً، ولا تبدو مُرضيةً، بل تبدو كحياة ينقصها شيء ما.

غالبًا ما يتم تعريف تعاستنا اليوم على أنها فشل فردي، على الرغم من أنها قد تكون رد فعل مناسبًا تجاه العالم والمجتمع الذي نعيش فيه. كما أن عدم وجود علاقة حب في حياة أحدنا يُنظر إليه عادةً على أنه فشل شخصي، نتيجة لعدم الجاذبية أو النجاح الاقتصادي أو اللياقة النفسية. وعندما تعيش بمفردك فإن هذه الافتراضات التي تحوم مِن حولنا تصدمك في كل مكان، لا سيما في وجوه الآخرين، في شفقتهم أو خجلهم أو فرحتهم السرية لأنهم أفضل حالاً منك.

ربما يكون هذا التصور أحد الأسباب التي تجعلنا لا نزال نعرف القليل جدًا عن الحياة اليومية والحالة النفسية للأشخاص الذين يعيشون بمفردهم. كما توضح المعالجة النفسية جوليا صموئيل في كتابها "هذا أيضا سوف يمر" This Too Shall Pass، أن التركيز في الأبحاث النفسية كان حتى الآن ينصب ببساطة على العلاقات الزوجية، وعلى الحياة الثنائية. ولم يتم إجراء أي أبحاث تقريبًا حول كيفية عيش الأشخاص بمفردهم، وهو أمر مثير للدهشة.[5]

في النهاية، أصبح الناس في هذه الأيام أكثر من أي وقت مضى عرضة لوضع أنفسهم في مركز تخطيط حياتهم. أصبحت "الاستقلالية الفردية" و"تحقيق الذات" من الأهداف العامة العليا.[6] أصبح نطاق أنماط الحياة المختلفة أوسع بكثير، وتراخت الروابط الأسرية التقليدية. وغالبًا ما تكون الزيجات والعلاقات العاطفية

التقليدية أقصر وأقل استقرارًا من ذي قبل. يعيش اليوم عدد أكبر من الناس بمفردهم أكثر من أي وقت مضى.[7] أشخاص مثلي. لم يجد الكثير منا شريكًا أو شريكة، ولم يؤسسوا عائلة، حتى لو كانوا يرغبون في ذلك في الأصل. لقد تخلّى الكثير منا طوعًا أو كرهًا عن رواية الحب الكبرى، على الرغم من أننا ربما ما زلنا نؤمن بها.

سواء كنا نعيش في علاقات أم لا، فكلنا لدينا حاجة إلى القرب يجب أن نلبيها. دون أن أستطيع التعبير عن ذلك بالكلمات، لم أشعر، عندما كنت مع سيلفيا وعائلتها عند بُحيرة ليبنيتس، أنني معزول عن نفسي وحياتي. وعلى عكس ما كنت أخشاه بعد انتقالها، قضينا الكثير من الوقت معًا. في نهاية الأسبوع، عندما كنا نكرس أنفسنا للمهام الكبيرة في الحديقة، كنا نجلس في المساء حول النار، منهكين بشكل جميل، أو ننسحب إلى المطبخ الكبير، ونطبخ، ونتحدث، ونحاول أحيانًا إقناع ليليت بتناول الخضراوات، ونلعب معها الورق. لتهدئة التوتر الداخلي، من المفيد أن تكون بصحبة أشخاص تعرفهم جيدًا وتثق بهم.[8]

كان العمل في الحديقة يمثل بشكل ما فصلًا آخر من فصول الصداقة بيني وبين سيلفيا، استمرارًا لقصة طويلة كتبناها معًا، قصة بها تقلبات، ومراحل مكثفة، وبدايات جديدة. أعرف سيلفيا منذ أن كنت في الثانية عشرة من عمري. كنا ندرس معًا للاختبارات النهائية في الفيزياء والتاريخ، ونذهب إلى البحيرة أو إلى أقرب مدينة صغيرة للتنزه. كانت أول شخص أخبرته أنني مثلي الجنس.

في سن التاسعة عشرة، سافرنا لمدة ستة أسابيع عبر إيطاليا، حاملين معدات التخييم على ظهورنا، ودخننا الحشيش على شواطئ

كالابريا، وضحكنا لساعات طويلة، وتغزلنا بعازف التشيلو، الذي أقام لنا حفلة موسيقية خاصة في منزل والديه المحاط بأشجار البرتقال والليمون. تشاركنا شقتنا الأولى في برلين. بعد أن انتقلت إلى نيويورك، وكنت أقيم معها في كروزبرج عندما كنت أزور ألمانيا. بعد أيام قليلة من ولادة ليليت، سمحوا لي بحملها بين ذراعي، وبعد ذلك بقليل أصبحت عرَّابها.

كانت سيلفيا من بين القلائل الذين لم يعرفوا مَن أنا فحسب، بل عرفوا أيضًا مَن كنت قبل عامين أو قبل عقدين من الزمن. نحن نتغير، نتغير طوال الوقت. وننسى، ننسى مَن كنا في الماضي، حتى لو لم نرغب في ذلك. نحن بحاجة إلى أشخاص يحموننا تحديدًا من ذلك.

عندما تعيش بمفردك، غالبًا ما تكون الصداقات، مثل صداقتي مع سيلفيا، هي محور حياتك. استمرت علاقاتي مع عديد من أصدقائي لفترة أطول من أطول علاقاتي العاطفية. إنها مصدر أكبر صراعاتي وأكبر سعادتي. تستند بعض الصداقات إلى اهتمامات مشتركة، مثل الاشتراكات الجماعية في أوركسترا برلين الفيلهارموني، أو دار الأوبرا الوطنية، وتبادل النصائح حول الكتب والمعارض. أسافر مع بعض الأصدقاء، وأقضي العطلات مع آخرين، وأقيم علاقات شبه عائلية معهم. بعضهم أصدقائي منذ زمن طويل لدرجة أننا نضحك بحرج عندما يسألنا الناس منذ متى نعرف بعضنا البعض، وبعض الصداقات حديثة العهد. أكبر صديقة لي تجاوزت السبعين، وأصغر صديقة لي في منتصف العشرينات. إنها صداقات تُنظم حياتي. إنهم أصدقاء وصديقات أشاركهم حياتي.

يُكتب الكثير عن رواية الحب الرومانسي، ويُنتج الكثير من الأفلام عنها، ويُبنى الكثير من النظريات لتفسيرها، لدرجة أننا غالبًا ما نتجاهل روايات القرب والحميمية الأخرى، أو لا نوليها الأهمية التي تستحقها. حتى لو لم تنشأ علاقة حب دائمة، حتى لو لم نؤسس عائلات، حتى لو عشنا حياتنا بمفردنا: فغالبًا ما نقيم صداقات. وبالنسبة للكثيرين منا، فإنها، كما تؤكد الفيلسوفة مارلين فريدمان، من أكثر العلاقات الشخصية الحميمة التي لا جدال فيها وأكثرها استمرارية وإشباعًا.[9]

الصداقات هي العلاقات الوحيدة التي تقوم بالكامل على أساس طوعي، وعلى التوافق المتبادل بين شخصين للتواصل بدرجات متفاوتة، وقضاء الوقت معًا، والوجود من أجل بعضهما البعض. لا يولد المرء فيها كما يولد في العلاقات الأسرية مع طقوسها وواجباتها. وعادةً ما لا ترتبط تلك العلاقات بقواعد الحصرية التي تحكم العلاقات العاطفية، ولا بأجندة الرغبة التي تتسم بها. نختار أصدقاءنا بناءً على شخصياتهم، وبالمقابل يتم اختيارنا من قبلهم تحديدًا بناءً على ذلك أيضًا.

غالبًا ما تكتسب علاقات الصداقة اليوم أهمية أكبر من العلاقات العاطفية. هذا ما توصلت إليه عالمة الاجتماع ساشا روزنيل في أبحاثها، حيث كتبت أن الصداقات في أيامنا هذه تنتمي إلى "ممارسات إصلاح الذات"، لأنها يمكن أن تساعد في "شفاء جراح الذات" ومواجهة "المصاعب النفسية وخيبات الأمل والمعاناة النفسية والخسائر"، كما يمكنها أيضًا أن تضمن ألا تسيطر الانهيارات النفسية والعلاقات الفاشلة على حياتنا العاطفية بأكملها.[10]

ومع ذلك، فإن ما نتحدث عنه عندما نتحدث عن الصداقة يختلف من شخص لآخر. في الواقع، من المدهش دائمًا مدى تنوع أشكال العلاقات التي نسميها صداقات.[11] فوفقًا لأحدث الأبحاث الاجتماعية، لا ينبغي فهمها كنوع واحد من العلاقات، بل كـ"عائلة من أشكال العلاقات المجردة"، كـ"شبكة من الأشكال الاجتماعية المترابطة تدريجيًا".[12] ويمكن أن يتراوح نطاقها من معارف قصيرة الأمد إلى علاقات حميمة طويلة الأمد. هناك أشخاص لديهم دوائر صداقة كبيرة وأخرى صغيرة.

في حين يملأ بعض الناس حياتهم بصداقات مكثفة في الغالب ويقومون بتمييز واضح بين "الأصدقاء الحقيقيين" والمعارف، يخلط آخرون بين جميع أنواع الصداقة ويحاولون "الموازنة" بينها حسب الحاجة. بعض الناس يعتمدون على أصدقائهم على المدى الطويل، بينما يغير آخرون دائرة أصدقائهم في كل مرحلة جديدة من حياتهم.[13] يكمن سر الصداقة في أنها شكل من أشكال العلاقات المتنوعة، شكل من العلاقات يشمل الكثير.

ربما نولي الصداقات أهمية أقل مقارنة بالعلاقات الأسرية والرومانسية لأن من الصعب تحديدها بوضوح. فقط الحب يمكنه أن يدعي أنه رواية كبيرة بحد ذاته. الصداقات تقترن بقصص صغيرة، بقصص صغيرة لا حصر لها، لا تتبع أنماطًا جاهزة.

لم أحلم أبدًا بأن أكون وحيدًا. لم أحلم أبدًا بأن الصداقات، وليس الشراكة والأسرة، ستكون أهم مجال من مجالات القرب بالنسبة لي. ومع ذلك، أحب حياتي، أحب الأشخاص الكثيرين المقربين مني، أحب شقتي، شرفتي المليئة بالنباتات، أحب الوقت الذي أمضيه في السفر

أو تناول الطعام أو المشي لساعات طويلة. أحب أن هناك مساحة لمشاريع مثل هذا الحديقة على بحيرة ليبنيتس. حتى دون علاقة حب، غالبًا ما أشعر أن حياتي مكتملة. ومع ذلك، على الرغم من كل شيء، يبقى هناك فراغ، بقايا شوق. أحيانًا، لبرهة قصيرة، أتمنى لو كان لدي شريك، شخص أقضي معه عطلات نهاية الأسبوع المريحة، يستيقظ بجانبي في الصباح ويسألني في المساء عن كيف كان يومي، شخص أستطيع أن أخبره متى سأعود إلى المنزل، شخص يعانقني عندما أحزن. كثيرًا ما أتساءل عما إذا كنت أفتقد شيئًا ما بشكل أساسي دون أن أعترف لنفسي بذلك؛ عما إذا كنت قد تعلمت العيش بمفردي جيدًا لدرجة أنني لم أعد ألاحظ وحدتي؛ عما إذا كان التوازن الهش في حياتي قائمًا على كبت الأشواق، على كبت رغبة لست على دراية بها.

بالإشارة إلى جملة جوان ديديون الشهيرة: "نحن نقصّ على أنفسنا الحكايات لكي نعيش"، تكتب كاتبة المقالات ماجي نيلسون أنّ هذه الحكايات "قد تُمكّننا من العيش، لكنها في الوقت نفسه تُبقينا أسرى لها". وتضيف نيلسون: "في سباقها لإيجاد معنى في اللامعنى، فإنها تُحرّف وتُسقِط وتُشفِّر وتلوم وتُمجِّد وتُقيِّد وتَخون وتُحوّل إلى أسطورة".[14] لست متأكدًا من مدى صحة كلامها. لكنني أؤمن بأننا يجب أن نراجع القصص التي نرويها لأنفسنا مرارًا وتكرارًا للتأكد من أنها لا تزال تناسبنا، أو أننا يجب أن نتخلى عنها أحيانًا حتى نتمكن من إعادة سردها بطريقة جديدة ومختلفة.

ما كان يبدو خاطئًا في كل التفسيرات التي قدمتها لوحدتي هو افتراضي المستمر لسلبيتي. كنت أصف الأمر دائمًا كما لو أن شيئًا ما "أصابني". لكن ألا يمكن أن أكون أنا من سعى إلى هذه الحياة المنعزلة؟ أو على الأقل جزء مني، جزء لا أحب أن أنظر إليه؟ ذلك

الجزء الذي كان يخشى الجروح التي تصاحب العلاقات حتماً، والذي أراد تجنب الاكتئاب الطويل الذي يحدث بعد انتهائها المحتمل، والذي لم يستطع تحمل التنازلات الضرورية، احتكاكات الحياة اليومية. ذلك الجزء الذي لم يسمح لكثير من الناس بالاقتراب منه. ربما كنت أعيش وحيداً لأنني أردت أن أعيش وحيداً.

ولكن هل يمكن للمرء أن يعيش حياة جيدة بمفرده، دون علاقة رومانسية؟ هل يمكن أن ترضي الصداقات حاجتنا إلى القرب؟ ما مدى استدامة نموذج الحياة هذا؟ وكيف نتعامل مع الأمر عندما يجد معظم الأصدقاء شركاء حياة، ويشعر المرء بالوحدة في وحدته؟ بعبارة أخرى، كيف تتعلم العيش مع وحدتك دون أن تشعر بالألم، ودون أن تكذب على نفسك؟ كانت هذه أسئلة لم أجد لها إجابة.

واصلنا العمل في الحديقة حتى حلول الشتاء. اقتلعنا أشجار الثوجا، وكشفنا من جديد مساحات واسعة من الأرض، وقسمناها إلى مساحات للعشب والأزهار وإلى زوايا مخصصة للأحواض المرتفعة وأشجار الفاكهة. قمنا بتحسين التربة، وغرسنا عند حدود الأرض الزعرور العطري، وشجيرات الليلك، والويجيلة، وأشجار الأجاص الصخرية، والبيلسان ذا الأوراق الحمراء، وأشجار البرقوق الدموي، والياسمين البستاني التقليدي. وضعنا في الأرض أعدادًا لا تحصى من أبصال الأزهار: التوليب البري، ونرجس الشعراء، والبوشكنية، وزهور الثلج، والزعفران، والشتاء الذهبي، كما زرعنا الخربق وورود الصوم الكبير، ونبات أذن الفأر القوقازي، والأعشاب، والسراخس، والشمر البري، ونبات البيروفيسكيا سريع النمو، والأستيلبا المحبة للظل، وكثيرًا من نباتات الزينة المعمرة القوية الأخرى. وكان من الجيد بذل تلك الجهود. يقول عالم الثقافة روبرت هاريسون في كتابه

"الحدائق" إن البشر لم يخلقوا لينشغلوا بالنظر إلى الغضب والموت والمعاناة اللانهائية في تاريخهم. لذلك فإنهم ينشئون الحدائق ليجدوا ملاذاً من صخب الزمن. ووفقاً لنظرية هاريسون، فإننا بحاجة إلى زراعة حدائقنا لأننا نعيش في خضم التاريخ؛ للعثور على القوى الشافية فينا، للحفاظ على إنسانيتنا.[15] عند العناية بالحدائق يكون من غير المؤكد ما سيحمله المستقبل، كيف ستبدو قطعة الأرض بعد بضعة أشهر أو سنوات أو عقود، وما إذا كان ما تزرعه وتبذره سينمو ويزهر. إننا نضع الأساس لشيء ما، نسقي، نُسمد، نزيل الأعشاب الضارة، ونتعلم التعايش مع النكسات والتخلي. البستنة ليست مجرد تعبير، بل هي أيضًا فعل ملموس للأمل.

ربما تكون هذه هي الأسباب التي تدفعنا في النهاية إلى تكوين الصداقات، خاصة في حياة منفردة: حتى لا نفقد التوازن في الواقع، حتى نواجه تقلبات الزمن والشعور بالاضطراب المنتشر، حتى نخلق فرصة لغد أفضل. أليست الصداقات أيضًا تمارين في الثقة والتخلي والقبول؟ ألا تساعدنا على تخيل المستقبل الذي لم يعد بإمكاننا تخيله في ظل الواقع القاسي للعالم؛ أو تساعدنا على الأقل على عدم فقدان الشعور بأن مثل هذا المستقبل ممكن وأن ما نفعله مهم، على الأقل قليلاً؟ لم أستطع أن أقول ما إذا كنت أؤمن بذلك أم أنني أردت فقط أن أؤمن به.